رؤيتي لظاهرة التكفير

الشيخ د. جعفر المهاجر

أظن أن من المفيد في مطلع البحث أن نُحدّد معنى عددٍ من الكلمات الاصطلاحيّة ذات الصلة بإشكاليّة الموضوع .

1 ــ **الكفر** ، ويعني في أصله اللُّغوي / الفيلولوجي : الجَحْد . أي إنكار صحّة أو صوابيّة موضوعه ، ومنه قول القائل (كفر النّعمة) ، يعني جحدها ولم يُقابلها بما تستحقّ قولاً أو عملاً . وهو بهذا المعنى ظاهرةٌ طبيعيّةٌ جدّاً من الوُجهة العملانيّة والأخلاقيّة . فمن الطبيعي والضروري أن الناس يختلفون في آرائهم ، خصوصاً في المسائل ذات الصفة العقليّة . وأن كلَّ ذي رأي يرى المُختلف عنه والمُخالف له كافراً /جاحداً لرأيه هو ، وإلا ما معنى الاختلاف والخلاف ؟ . ومن الواضح أن هذا التعريف لا ينظر إلى التطوّر الألسني للكلمة في اللغة الدينيّة خصوصاً ، حيث أُضيف إلى معناها الأصلي صفة الإدانة للمُختلف والمُخالف ، فقط لأنه مُختلف ومُخالف . وهي ظاهرة تستحق الدراسة ضمن التأمّل في مواصفات الاجتماع الديني . ولكن علينا أن نُلاحظ هنا أن صفة (الكافر) لا تنفي إمكانيّة التحاور والتعايش ، أو ما يُعبّر عنه القرآن بـ (الكلمة السّواء) .

2 ــ **التّكفير** ، وهو ذلك المَنزَع في الرأي والسُّلوك الذي يجعل المُكفِّر من نفسه ورأيه مقياساً للحقّ والباطل حتى في أتفه الأُمور . ثم أنّه يُرتّب على رأيه فيها حقّ الاقتصاص وإيقاع العقاب بمَن يُخالفه . وبذلك يمنح نفسه صفة القاضي والجلاّد ، دون أن يُفسح أدنى مكان لإمكانيّة الحوار والتّعايُش . ومن أمثلة ذلك أنّ الرأي الرسمي للوهّابيين أن الأرض مُسطّحة وليست كُريّة ، وأن الشمس تدور حولها وليس العكس . ويبني على ذلك أن المُخالف له بذلك يُستتاب ، فإن لم يتُبْ يُقتَل ويحرُمُ دفنُه .

3 ــ ثمة مُصطلَح ثالث نشأ في الجو الفتنوي العالق الآن ، قيل أنه دخل بعض اللغات العالميّة هو (الدّاعشيّة) . وهو هو (التكفير) نفسه ، بعد أن جُعل تنظيماً عالميّاً يعمل على وضع البشريّة بين خياريَن : الخضوع له فكريّاً وعملانيّاً ، وإلا فإنّه سيكون هدفاً مشروعاً لمُختلف أشكال القسوة العشوائيّة الرّامية إلى إرهابه ، أي الحصول على أهدافٍ سياسيّة بواسطة القسوة . وهذا يُفسّر صنوف الأعمال الوحشيّة غير الضروريّة التي ارتكبها ويرتكبها هؤلاء الدّاعشيون، من مثل قتل الأطفال، والقتل بواسطة التحريق بالنار وما إلى ذلك . مع الحرص على نشر ذلــك في وسائل الإعلام . ما يدلّ على الهدف المطلوب من تلك الأعمال الوحشيّة .

الحقيقةُ التي يجب على الباحث الحرّ أن يُدلي بها في المرحلة التالية من البحث ، أنّ (الدّاعشيّة) ، بكل ما لها من مُواصفات ، ليست ظاهرةً جديدةً على الحضارة الإنسانيّة . وأن ما ترمي إليه كلّ الحروب هو إمّا إلغاء الآخر مادّيّاً ، وإمّا إرهابه إلى درجة إخضاعه لمصلحة الغالب . كلّ ما في الأمر أن داعشيّة هذا الزمان طرحت مشروعها الغبيّ طرحاً مُباشراً وتحت شعارٍ دينيّ . ليس فيه من دينها المزعوم إلا الجهل والقسوة المُفرطة . ثم أن هذه القسوة التي تتمّ تحت شعارٍ دينيّ هي أيضاً ليست جديدة . بل إننا نجد سابقتها في (داعشيّةٍ) سابقة هي ما يُسمّى حركة الفُتوح الإسلاميّة ، التي استُبيحت فيها النفوس والبلاد والأموال ، خلافاً للنصوص القرآنيّة التي تُكرّم الإنسان بما هو إنسان (الخلق كلّهم عيالُ الله) . كما نجدُ سابقتها في الحروب التي شنّتها أُوروبة على بلاد الإسلام تحت شعار الصليب . ويا لبُعد السيّد المسيح عمّا أرتكبه أُولئك القتَلَة باسمه . من مثل مذبحة القدس الهائلة التي خاض فيها الغُزاة بدماء القتلى المدنيين حتى رُكبهم . وإن نحن نظرنا إلى سلوك البشر تحت شعاراتٍ سياسيّة فإنّنا سنقع على أمثلةٍ أكثر سوءاً . هل نسينا الحربين اللذين شنّتهما أوروبة على بعضها على بعض ، وجعلت من العالَم ميداناً لها

، تحت شعاراتٍ سياسيّة خادعة . وبالنتيجة قُتل عشرات الملايين من البشر ، ودُمّرت مُدُنٌ بأسرها في بريطانيا وألمانيا واليابان على رؤوس أهلها من المدنيين .

أُريد أن أقول في النهاية ، أنه إن يكُن علينا جميعاً ، وهو علينا بالفعل ، أن نُدين وأن نعمل كل ما في وُسعنا فكراً وعملاً في وجه داعشيّة هذا الزمان ، فإن علينا أيضاً أن نجد في أنفسنا الشجاعة لإدانة كلّ نَفَسٍ داعشيّ ، حتى إن يكُن ممّا ينتمي إلينا بوشيجةٍ موهومة ، لُحمتها وسُداها العصبيّة . وأُوردُ هنا حديثاً جليلاً سأل فيها رجلٌ النبي: "ما العصبيّة ؟ " أجاب :"أن ترى شِرار قومك خيراً من خِيار قومٍ آخرين".

أخيراً أقول إن مؤتمرنا الكريم هذا ينعقدُ تحت شعار الحوار الإسلامي ــ المسيحي ، وما العمل بوجه التكفير إلا عنوانٌ تفصيليّ . فانطلاقاً من هذا المَطلب ، وبمناسبة ذكر العصبيّة وما أتانا به الحديث الشريف من تعريفٍ جميلٍ لها ، ثم لأنّني أعتقد أن ما سأُحوّل الكلام إليه ينطوي على نَفَسٍ داعشيّ ، بمقدار ما تعني الدّاعشيّة إلغاء الآخر ، لكلّ ذلك أقول : إن وطننا العزيز كان لعدّة قرونٍ تحت الحكم العثماني الوحشي ، الذي استنزفه ماليّاً وبشريّاً وإنتاجيّاً . إبّان ذلك الليل الطويل كان وطننا مقسوماً إلى أربع مناطق . كل منطقةٍ منها مُساسَةٌ بأُسرة إقطاعيّة : الأُسرة الحماديّة في جبل لبنان الشمالي . المعنيّة فالشهابيّة في جبل لبنان الجنوبي . الوائليّة في جبل عامل . الحرفوشية في المنطقة الدّاخليّة . كلّ الأُسرات قاومت الاحتلال العثماني . وكثيرٌ من أُمرائها وشيوخها قضوا شهداء في سوح القتال . ومنهم أشخاصٌ يستحقّون أن يكونوا نماذج لحب وطنهم والشهادة في سبيله . أذكر منهم البطل ناصيف النّصّار ، ورجل الدولة والإدارة الطليعي يونس الحرفوش . والمُقاوم الصنديد الشيخ سرحان حماده ، وكلّ هؤلاء استشهدوا في سوح القتال ضدّ المُحتلّين . واحدٌ منهم كان عميلاً صريحاً لهم ، ومُنفّذاً أمينا لسياستهم ضدّ أبناء وطنه . وفي هذا السبيل قتل منهم أكثر ممّا قتل أي إنسانٍ آخر . ذلك هو فخر الدين المعني . ومع ذلك فإنّ مَن كتبوا التاريخ الذي يُلقّن لأبنائنا في مدارسنا أختاروه دون غيره ليجعلوا منه رمز الجمهوريّة الجديدة . وها هو تمثاله ينتصب شامخاً على مدخل الوزارة التي تحمل عبء الدفاع عن الوطن . ذلك خطأٌ لا بد من أن نسارع إلى تصحيحه . خصوصاً وأنه لم يعُد ينطلي حتى على النّاشئة في مدارسنا . ثم لابُد من أن نكتب تاريخنا الإنساني الغني الذي ساهمت فيه جميع طوائف البلد ، وأن ننأى بأنفسنا عن التاريخ السُّلطوي . وبذلك نربّي أبناءنا على قيمٍ مشتركة ، ونهيّؤهم للإندماج التامّ تحت علَم الوطن .